مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

مسألة الاستشراق

تأليف:
برنارد لويس

ترجمة:
عبد الباسط منادي إدريسي

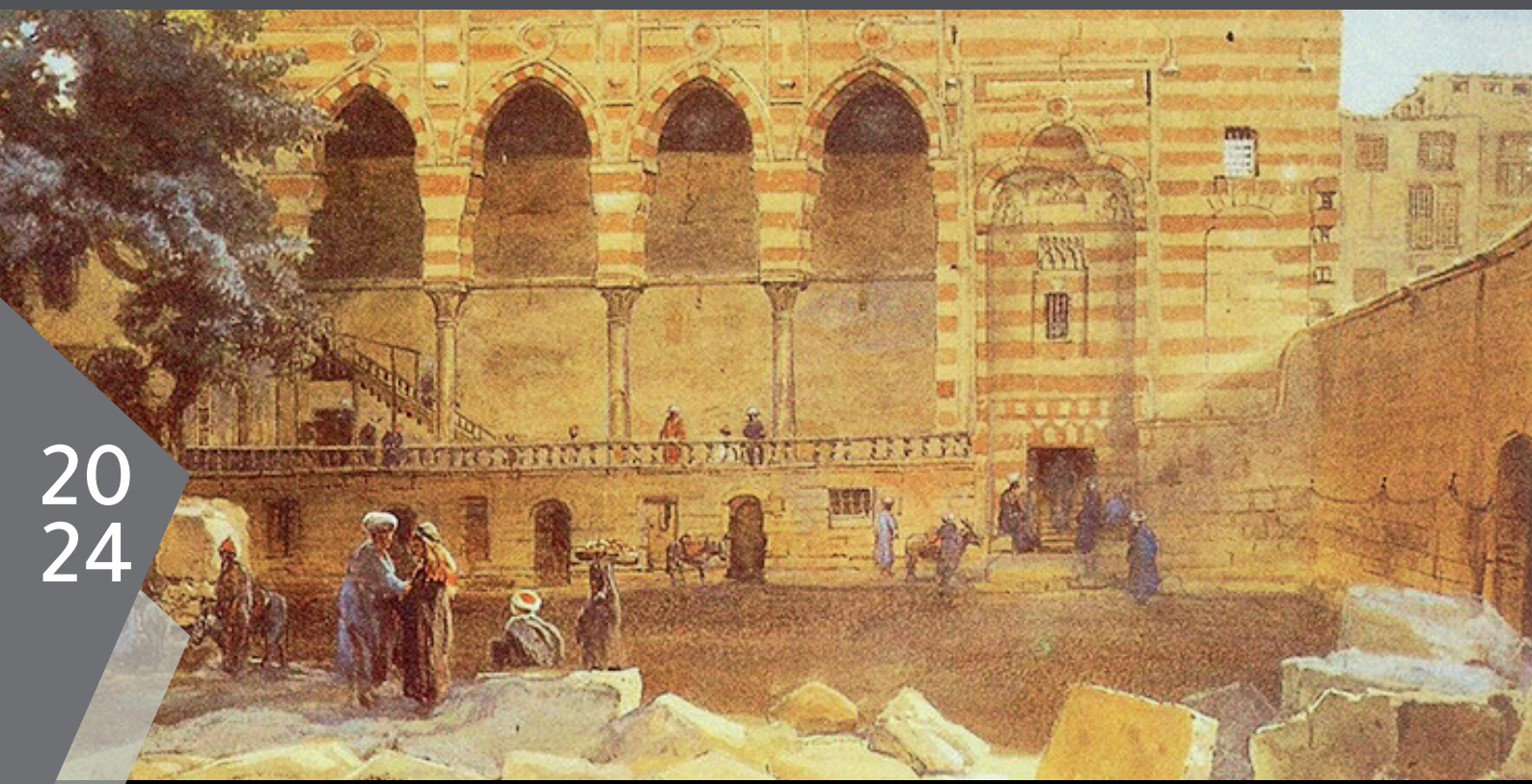

2024

www.mominoun.com

- **ترجمة**
- **قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة**
- 06 فبراير 2024

جميع الحقوق محفوظة © 2024

مسألة الاستشراق[1]

تأليف: **برنارد لويس**
ترجمة: **عبد الباسط منادي إدريسي**

1 - مصدر المقال:

- Lewis, bernard. «The Question of Orientalism.» the New York Review of Books. June 24, 1982.

ملخص:

كُتِب الكثير حول العلاقة بين الشرق والغرب، ولعلَّ جلَّ طروح الباحثين من الطرفين، اتّسمت بالتحيز الناتج عن الانتماء العرقي فالديني، ثم العرقي فالسياسي، فالاقتصادي ثم الثقافي. وكانت دراسة الراحل إدوارد سعيد أحد أكثر الأعمال إثارة للجدل في ذلك المجال. ومن يعيبون على سعيد اليوم من الضفتين، وهم كثر، طريقته الحانقة في التحليل والنقد يغفلون عن انتماء الرجل القومي، وهو أحد أكثر الجوانب تأثيراً في الصيغة التي أتت عليها دراسته المذكورة **الاستشراق**. فقد أقرَّ في طبعات متأخرة للكتاب بأنَّ عمله صُمّم على النحو الذي أتى عليه؛ لأنَّه عمل منحاز سياسياً، ويمتح من تجربة المنفى الأليمة التي أجبر رفقة الملايين من الفلسطينيين (وما زالوا) على تجرُّعها في الشتات.

وليس المقال الذي بين أيدينا سوى حلقة من الجدال الذي أثاره **الاستشراق**، ولعلَّ أعمال سعيد اللاحقة لا تربو عن كونها إيضاحات للأسس المنهجيَّة والمفاهيميَّة (**العالم، والنص، والناقد**)، وتحيينات معرفيَّة للعمل (**تغطية الإسلام**)، وتجاوز إنسي له (**الثقافة والإمبرياليَّة والإنسيَّة والنقد الديمقراطي**).

وما يزال عمل سعيد موضع تقييم معرفي ونظري ومنهجي، ويأتي التقييم المعرفي سجالياً في مُعظمه تحت عناوين مثل: «البحث السعيدي الزائف». ويُعتبر برنارد لويس الرائد الأول لهذا الصنف من النقد. وقد انبرى مؤخراً لنصرة جهوده باحثون إسرائيليون شباب، ويمينيون أمريكيون، وأكاديميون بريطانيون، وأمريكيون من أصول آسيويَّة.

*****

تخيَّل معي وضعاً تقرر فيه مجموعة وطنيين وراديكاليين من اليونان أنَّ مهنة الدراسات الكلاسيكيَّة مهينة للإرث العظيم لهيلاس، وأنَّ هؤلاء من المهتمين بهذه الدراسات المعروفين بالكلاسيكيين، هم التّمظهر الأخير لمؤامرة خبيثة وبالغة التعقيد، احتُضنت لقرون وبرعمت في غرب أوروبا، واكتمل نضجها في الولايات المتحدة، وهدفها تشويه سمعة الإنجازات اليونانيَّة، وإخضاع الأرض والشعب اليونانيين. كلُّ التقليد الأوروبي للدراسات الكلاسيكيَّة من هذا المنظور، وهو، في جزء مهم منه، من إبداع الرومانسيين الفرنسيين، والحكام الكولونياليين البريطانيين (لقبرص طبعاً) والشعراء والأساتذة الجامعيين والمندوبين السامين من كلا البلدين، ما هو إلا تدنيس راسخ التقليد لشرف وانسجام هيلاس، وتهديد لمستقبلها. وقد انتشر سُمُّه من أوروبا إلى الولايات المتحدة، حيث يسيطر عرق الكلاسيكيين الخبيث على تلقين التاريخ واللغة والأدب اليونانيين في الجامعات، رجال ونساء ليسوا من أصل يوناني، وليس لديهم تعاطف مع القضايا اليونانيَّة، ويسعون جاهدين، تحت القناع المزيف للثقافة النزيهة، للإبقاء على الشعب اليوناني في وضع تبعيَّة دائمة.

وقد حان الوقت لإنقاذ اليونان من الكلاسيكيين هؤلاء، ولإنهاء التقليد الخبيث للدراسات الكلاسيكيَّة. وحسب هذا المنطق، فبإمكان اليونانيين وحدهم التدريس والكتابة عن التاريخ والثقافة اليونانيين من العصر القديم إلى يومنا هذا؛ فوحدهم اليونانيون قادرون على توجيه وتسيير برامج الدراسات الأكاديميَّة في هذه الحقول. قد يُسمح لبعض غير اليونانيين بالانضمام إلى هذا المسعى العظيم، شرط أن يقدّموا الدليل القاطع على جدارتهم، مثلاً عبر حملات لصالح القضيَّة اليونانيَّة في قبرص، وعبر إظهار عدائهم للأتراك، وعبر تقديم القليل من البخور للآلهة اليونانيين المتوَّجين حديثاً، وكذلك عبر تبنّي كلّ ما قد يكون الموضة الإيديولوجيَّة في الدوائر الثقافيَّة اليونانيَّة.

ومن غير اليونانيين ممَّن ليس بمستطاعهم تلبية هذه المتطلبات يبقون بكلّ وضوح معادين، وهكذا فهم ليسوا مؤهَّلين لتدريس الدراسات اليونانيَّة بطريقة عادلة وعقلانيَّة، يجب ألَّا يُسمح لهم بالاختباء خلف قناع الكلاسيكيَّة، بل يجب كشفهم على حقيقتهم على أنَّهم مُحبّو الأتراك، أعداء الشعب اليوناني، وخُصوم القضيَّة اليونانيَّة. أمَّا هؤلاء ممَّن حازوا مكاناً لهم في الدوائر الأكاديميَّة، فيجب تجريدهم من مصداقيتهم عبر الإهانة والتحييد. يجب أن تؤخذ خطوات لضمان السيادة اليونانيَّة أو الموالية لليونان على المراكز الجامعيَّة وشُعب الدراسات اليونانيَّة في الوقت نفسه. وهكذا بنوع من الوقاية الأكاديميَّة، يجب أن يُمنع ظهور دارسين كلاسيكيين جدد أو دراسات كلاسيكيَّة جديدة، ويجب في الوقت ذاته تحويل اسم الكلاسيكيين نفسه إلى لفظ قدحي.

تبدو الفكرة سخيفة وقد قُدّمت في حلة الكلاسيكيين. لكن إن عوَّضنا الكلاسيكي بالاستشراقي مع التغييرات الموازية، يُصبح هذا الخيال المسلي حقيقة مُقلقة. لسنوات، صدحت صرخة ضدَّ المستشرقين

في الجامعات الأمريكيَّة، وإلى درجة أقل في الجامعات الأوروبيَّة، وأفرِغ لفظ «الاستشراق» من محتواه السابق، وأُعطِي محتوىً جديداً كليَّاً، محتوى التعامل غير المتعاطف والعدائي ضدَّ الشعوب المشرقيَّة. لهذا السبب، حتى عبارة «غير متعاطف» ولفظ «العدائي» تمَّت إعادة تعريفهما ليعنيا، غير داعم للمعتقدات والقضايا المعاصرة.

خذ مثال الروائي «في. إس. نايْبول»[1]، كاتب نص رحلة قام بها في دول مسلمة. فالسيد نايبول ليس بروفيسوراً، بل هو روائي؛ أحد الروائيين الأكثر موهبة في زمننا الحالي. إنَّه ليس أوروبياً، بل غرب هندي من أصل شرق هندي. وكتابه ليس عمل دارس منكبّ، ولا يدَّعي أنَّه كذلك، إنَّ عمله هو نتيجة حصافة الملاحظة، من ملاحظ ممتهن للوضع الإنساني. إنَّه أحياناً مُخطئ، ودقيق أحياناً أخرى بشكل مدمّر، وفوق كلّ ذلك شغوف. لدى السيد نايبول عين يقظة لرصد سخافة السلوك الإنساني في البلاد الإسلاميَّة كما في غيرها، وهو مدفوع في الوقت نفسه بتعاطف عميق وتفهُّم للحنق والمعاناة في يوميات الشعب الذي يصوّر سخافاته بكلّ صدق.

لكنَّ هذه الشفقة ليست محطَّ تقدير أو موضع اعتراف من قبل واضعي الملح على الجروح السياسيَّة أو الإيديولوجيَّة. لن يتبع السيد نايبول العرف السائد، لن ينضم إلى إطراء القادة الإسلاميين الراديكاليين وسبّ معارضيهم. لهذا فهو مستشرق، والأخير لفظ يطلق عليه حتى من قبل طلبة الجامعات المغسولي الأدمغة، والذين وجب أن يتحققوا أولاً. فاضطرابهم العقلي يفاجأ في وضع حيث بروفيسور في جامعة ذات سمعة يُعطي دروساً حول «الاستشراق»، تتشكل من خُطب لاذعة ضدَّ الدراسات الاستشراقيَّة، وتقديم للدارسين في المجال كشياطين، والتعليق الأخير كالآتي: «والآن هناك شيء آخر يجب أن أخبركم به، حتى هنا، في هذه الجامعة، هناك مستشرقون.» نُبِست الكلمة الأخيرة مع تأكيد فج وسخيف على كلمة مستشرقين.

ما الاستشراق إذاً؟ ما الذي كانت الكلمة تعنيه قبل أن يتمَّ تسميمها من طرف نوع التلوث الفكري الذي جعل من كلمات مفيدة سابقاً غير صالحة للاستعمال في الخطاب العقلاني اليوم؟ استُعملت كلمة الاستشراق بمعنييْن: أحدهما يعود لمدرسة رسم، وتحيل على أعمال مجموعة رسَّامين، غالباً من أوروبا الغربيَّة، الذين زاروا الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وصوَّروا ما رأوه وتخيلوه بطريقة رومنسيَّة مُبالِغة. بينما يحيل المعنى الآخر الأكثر استعمالاً، والذي لا علاقة له بالأوَّل، على فرع من المعرفة. ويعود أصل الكلمة والشعبة الأكاديميَّة التي تحيل عليها إلى التوسُّع العظيم للمعرفة في غرب أوروبا منذ عصر النهضة صعوداً. كان هناك هلينيُّون درسوا اليونانيَّة، ولاتينيوُّن درسوا اللاتينيَّة، وعبرانيوُّن درسوا العبريَّة، كانت

1- هو السّير فيْديادْهار سوراج براساد نايبّول، أديب بريطاني من أصل ترينيدادي، له عدة إسهامات روائية، وأخرى لأدب الرحلة، فائز بجائزة نوبل للآداب.(من إضافة المترجم)

المجموعتان الأوليان تُدْعيان الكلاسيكيين، والمجموعة الثالثة المستشرقين. وقد حوَّلوا اهتمامهم إلى لغات أخرى في وقت لاحق.

كان هؤلاء الدارسون الأوائل فيلولوجيين أساساً، ويهتمُّون باستعادة ودراسة ونشر وتأويل النصوص. كانت هذه المهمَّة الأولى والأساسيَّة التي يجب عملها قبل أن تصبح الدراسة الجادَّة لقضايا كالفلسفة والثيولوجيا والأدب والتاريخ ممكنة.

لم يكن مصطلح الاستشراق آنذاك غير واضح وغير دقيق كما يبدو الآن. كانت هناك شعبة واحدة هي الفيلولوجيا. وكانت هناك منطقة واحدة في المراحل الأولى، تلك التي نسميها اليوم الشرق الأوسط: الجزء الوحيد من الشرق الذي أمكن للأوروبيين أن يدَّعوا معرفة حقيقيَّة به.

ومع تطوُّر الكشوف الجغرافيَّة وتوسُّع المعرفة، أصبح مصطلح الاستشراق غير مرضٍ بشكل كبير. لم يكن طلبة الشرق مرتبطين بشعبة واحدة، لقد فرَّعوا عملهم إلى شُعب أخرى. كان يُنظرُ إلى المنطقة التي يدرسونها، «الشرق»، على أنَّها تمتد إلى ما وراء أراضي الشرق الأوسط التي تركَّز حولها الاهتمام الأوروبي، لِيضم الحضارات الكبيرة والنائية للهند والصين. وكان هناك ميل يكبر بين الدارسين، وفي شُعب الجامعات المهتمة بهذه الدراسات، إلى استعمال أسماء أكثر دقة. أصبح الدارسون يطلقون على أنفسهم اسم فيلولوجيين ومؤرخين...إلخ، يتعاملون مع مواضيع شرقيَّة. وعلاقة بهذه المواضيع، أصبحوا يستعملون تسميات كالصّينُولُوجي، والهندولوجي، والإيرانستي (أي دارس مهتم بالشؤون الإيرانيَّة)، والمُستعرب، ليمنحوا تعريفاً قريباً وأكثر دقة للمنطقة ولموضوع دراستهم.

وعرضاً مرَّ اللفظ الأخير «المستعرب» أيضاً من مسار إعادة تشكيل للمعنى. وكانت كلمة المستعرب في إنجلترا في الماضي تُستعمل بطريقة استعمال الإيرانستي والهيسبانستي والجرمانستي نفسها لِتُحيل على دارسٍ مهتمٍّ مهنيَّاً باللغة والتاريخ والثقافة لأرض وشعب معيّنين. وأصبحت الكلمة في الولايات المتحدة تعني مختصاً في التعامل مع العرب، خصوصاً في الحكومة وفي ميدان التجارة، وتعني بالنسبة إلى بعض آخر داعم للقضايا العربيَّة. هناك مثال آخر على تلوث الكلمة، والذي يحرمنا من استعمال لفظ ضروري. فلفظ الهيسبانستي لا تعني مُدافعاً عن الطغاة أو الإرهابيين في أمريكا الوسطى، أو معجباً بمصارعة الثيران، أو ملاحظاً أو ممارساً للشؤون الإسبانيَّة، أو مموّناً للموز. إنَّها تعني دارساً مع معرفة جيدة بالإسبانيَّة، مختصاً في حقل التاريخ أو الثقافة الإسبانيَّة أو الأمريكيَّة/ اللاتينيَّة. يجب أن تُستعمل كلمة مستعرب بالطريقة نفسها. يبقى هذا نقاشاً بيزنطياً على كلّ حال، ويجب إيجاد لفظٍ آخر. اقترح البعض لفظ عربُلُوجِي، سيراً على نهج الصينولوجي، والهندولوجي، والتّركولوجي. في هذا اللفظ بعض الدقة، لكن على حساب أناقة بادية. يستحق مجموعة دارسين قيّمين مُهتمين بدراسة حضارة عظيمة حقاً تسمية أفضل.

تمَّ تلويث مصطلح الاستشراق إلى حدٍّ لا يُطاق. لكنَّ هذا أقلَّ أهميَّة، لأنَّ الكلمة فقدت سابقاً قيمتها، وتمَّ التخلي عنها من قبل هؤلاء الذين استعملوها سابقاً. هذا التخلي لقي ترحيباً رسمياً في المؤتمر الدولي للمستشرقين الذي عقد في باريس صيف عام 1873. كانت هذه الذكرى السنويَّة للمؤتمر الدولي للمستشرقين الذي اجتمع في السنة نفسها، وبدا أنَّه مناسبة جيدة لإعادة النظر في طبيعة ووظائف المؤتمر. أصبح واضحاً بسرعة أنَّه كان هناك إجماع لصالح ترك هذه التسمية، لكنَّ البعض أراد الذهاب أبعد من ذلك إلى إنهاء سلسلة المؤتمرات على أساس أنَّ المهنة ذاتها لم تعد موجودة، وأصبح وجود المؤتمر على إثر ذلك بدون هدف. كانت الإرادة الطبيعيَّة لبقاء المؤسسات قويَّة كفاية لمنع حلّ المؤتمر. فقد كانت الحركة الداعمة لإلغاء لفظ «مستشرق» ناجحة.

وعلى هذا الأساس، أتى الهجوم من جهتين: فمن جهة، كان هؤلاء ممَّن يُدْعون مستشرقين، والذين أصبحوا غير راضين بشكل يتعاظم عن مصطلح لا يهمُّ لا التخصُّص الذي يرتبطون به، ولا المنطقة التي كانوا مهتمين بها. تمَّ تشجيع هذا الطرح من قبل دارسين من دول آسيا، الذين أشاروا إلى سخافة تطبيق هذا اللفظ «المستشرق» على هندي يدرس التاريخ أو الثقافة الهنديَّة، وقرَّروا النقطة الموالية، ومفادها أنَّ اللفظ كان نوعاً ما إهانة للمشرقيّين الذين جعلهم يظهرون على أنَّهم موضوع الدراسة عوض أن يُعتبروا مشاركين فيها.

كان طلب الإبقاء على الاسم قرار الوفد السوفيتي، بقيادة الراحل باباجان غفُوروف، مدير مؤسسة الاستشراق في موسكو، وكان هو نفسه مشرقيّاً سوفيتياً من جمهوريَّة طاجاكستان. يقول غفُوروف: لقد خدمنا هذا اللفظ بشكل جيد لأكثر من قرن. لماذا يجب أن نتخلى عن الكلمة التي تُسمي العمل الذي نعمله، والتي حملها بفخر أساتذتنا وأساتذتهم لأجيال مضت؟ لم يكن غفوروف مسروراً بتعليق الوفد البريطاني الذي أطرى على خطبته المُقتدرة لصالح وجهة النظر المُحافظة. وعند التصويت، ورغم دعم المستشرقين من شرق أوروبا، الذين وافقوا على طلب الوفد السوفيتي، تمَّت هزيمة غفوروف، وتمَّ التخلي عن اللفظ «مستشرق» رسمياً. قرَّر المؤتمر عوضاً عنه أن يُطلق على نفسه «المؤتمر الدولي للعلوم الإنسانيَّة في آسيا وشمال إفريقيا»، وهو تعبير مقبول أكثر، مع ثِقلٍ واضحٍ على اللسان، وعلى شرط أن يكون الدارجون على استعماله على معرفة كافية بالمفردات الأكاديميَّة الفرنسيَّة، ليعرفوا أنَّ العلوم الإنسانيَّة تتشكل من العلوم الاجتماعيَّة مع خميرة العلوم الإنسانيَّة. وهكذا تمَّ التخلي عن اللفظ «مستشرق» من قبل المستشرقين الوازنين، وتُرك في مزبلة التاريخ، لكنَّ المزابل ليست آمنة. فقد تمَّت استعادة كلمتي مستشرق والاستشراق، التي تخلى عنها الدارسون، لأنَّها غير صالحة، وتمَّت إعادة تطويرها لهدف مختلف، بالضبط لأغراض السجال العُدواني.

لم يكن الهجوم على المستشرقين في الواقع جديداً في العالم الإسلامي. فقد مرَّ بمراحل سابقة عديدة، حيث تداخلت مصالح وحوافز مختلفة في تشكيله. ولدى إحدى الهجمات لمرحلة ما بعد الحرب أصل مثير للفضول، كانت على علاقة مع بدأ العمل على الطبعة الثانية لـ«**موسوعة الإسلام**»، مشروع مهم للاستشراق في حقل الدراسات الإسلاميَّة. كانت الطبعة الأولى، قد نُشرت في الوقت ذاته بثلاث لغات: الإنجليزيَّة، والفرنسيَّة، والألمانيَّة، مع مشاركة دارسين من هذه البلدان وبلدان أخرى عديدة. تطلب الأمر ثلاثين سنة وتمَّ إنهاؤه، أي المنشور، عام 1938، بينما بدأت الطبعة الثانية عام 1950، ونُشرت بالإنجليزيَّة والفرنسيَّة فقط، ودون عضو ألماني في مجلس المحرّرين الدولي.

وكانت كراتشي منصَّة انطلاق الهجوم الإسلامي، وهي عاصمة جمهوريَّة باكستان الإسلاميَّة المُؤسَّسة حديثاً، وقد ركَّز المهاجمون على نقطتين اثنتين: أولاً غياب الطبعة الألمانيَّة ومحرّر ألماني، وثانياً حضور يهودي فرنسي في مجلس المحرّرين، وهو الراحل إي. لوفيبروفنسال. لقد بدت أولويَّة أو حضور الشكوى الثانية غريبة نوعاً ما في كراتشي، وتمَّ توضيحها في المسار ذاته، وذلك عندما ظهر أنَّ منظّم هذا التحريض الخاص وُصف بأنَّه «إمام طائفة المسلمين للمسلمين الألمان في غرب باكستان» مع القليل من المساعدة من دبلوماسي ألماني غير راضٍ عن المجريات السياسيَّة، الذي كان قد عُيّن هناك حديثاً.

كان هذا زمناً، حيث كانت عقليَّة الرايخ الثالث لم تختف تماماً[2]. دامت المرحلة وقتاً قصيراً، ولم تُثر صدى، أو على الأقل أثارت صدى قليلاً في أماكن أخرى في العالم الإسلامي. تبعتها حملات أخرى ضدَّ المستشرقين، معظمها محلي في أصله. وسيطرت على الهجوم تِيمتان: الإسلامي والعربي. اعتُبر الاستشراق تحدّياً للدّين الإسلامي بالنسبة إلى البعض ممَّن عرفوا أنفسهم وخصومهم حصراً على أسس دينيَّة. كتب بروفيسور في الأزهر في مصر في بداية الستينيات مقالاً قصيراً حول المستشرقين والأشياء الخبيثة التي يقومون بها[3]. يقول إنَّهم يتكوَّنون من المبشرين الذين يهدِفون إلى احتقار الإسلام، وهدم أسسه كهدف استراتيجي، من أجل فرض السيادة الدينيَّة للمسيحيَّة. ينطبق هذا على معظمهم، مع استثناء اليهود، والذين لا يقلُّ هدفهم شناعة. يجْرد الكاتب لائحة للمستشرقين الذين يعملون ضدَّ الإسلام، الذين يجب مجابهة تأثيرهم السام، ويقدّم لائحة خاصة للدارسين الأكثر خطورة وغدراً، الذين يجب الاحتياط منهم، وهؤلاء ممَّن يشكّلون مظهراً خادعاً لنيَّة حسنة.

تضمُّ اللائحة من بين آخرين، فيليب حتّى، من برنستون، ويصفه كاتب الكتيّب كالتالي:

2- الإعلام الباكستاني، ربيع وصيف 1955، خصوصاً الافتتاحيَّة وعمود الأخبار في **أخبار الصباح**، كراتشي، 24 غشت 1955، ورسالتان من قبل عناية الله منشورة في 1 شتنبر 1955.Pakistan Times

3- البهي محمد. المبشرون والمستشرقون في مواقفهم من الإسلام. القاهرة 1962.

(فيليب حتّى) لبناني مسيحي...، من ألدّ أعداء الإسلام، يتظاهر بالدفاع عن القضايا العربيَّة في أمريكا، وهو مستشار غير رسمي لوزارة الخارجيَّة الأمريكيَّة في شؤون الشرق الأوسط، يحاول دائماً أن ينتقص من دور الإسلام في الثقافة الإنسانيَّة، ويكره أن ينسب للمسلمين أيّ فضل...، و(كتابه) **تاريخ العرب** مليء بالطعن في الإسلام والسخرية من نبيّه، وكله حقد وسمٌ وكراهية[4].

كان الراحل «فيليب حتّى» Philip Hitti مدافعاً قوياً عن القضايا الإنسانيَّة، وكتابه ترنيمة للمجد العربي. لا بد أنَّ هذا الردّ عليه قد صدمه. كما ظهرت شكاوى دينيَّة مشابهة حول المستشرق كطابور مسيحي خامس في باكستان وحديثاً جداً في إيران.

لدى نقاد الاستشراق المسلمين الملتزمين دافع واضح حين ينظرون إلى الكُتَّاب المسيحيين واليهود على أنَّهم مرتبطون بجدل ديني، أو على أنَّهم مهتمون بحث الآخرين على تغيير دينهم حقاً بسبب افتراضاتهم، كما أنَّ استنتاجاتهم لا مفرَّ منها. إنَّ مُساندي ديانة ما في نظرهم مجرَّد مدافعين عن تلك الديانة، ومقاربة ما لدين آخر من قبل أيّ أحد، إنَّما هو تحوُّل ديني محتمل، ويمكنها أن تؤخذ كدفاع أو كهجوم. لم يأخذ الدارسون المسلمون التقليديون على عاتقهم دراسة الفكر أو التاريخ المسيحي أو اليهودي، ولم يروا في دراسة اليهود والمسيحيين للإسلام حافزاً مُشرّفاً، وأحد مواصفات الذمَّة، أي القواعد التي يُسمح بموجبها للمسيحيين واليهود بممارسة دينهم تحت حكم إسلامي يمنعهم من تدريس القرآن لأطفالهم. كان للمسيحيين في القرون الوسطى رؤية مشابهة. وعندما بدأوا بدراسة القرآن والمخطوطات الإسلاميَّة، كان ذلك من أجل تحقيق هدف مزدوج؛ أولاً: لمنع المسيحيين من التحوُّل إلى الإسلام، وثانياً: لإقناع المسلمين بتبنّي المسيحيَّة. تمَّ التخلي عن هذه المقاربة منذ زمن طويل في العالم المسيحي باستثناء القاعدة الأماميَّة للحماس الديني. وبقيت هذه النظرة المسيطرة لمدّة طويلة للعلاقات الفئويَّة في العالم الإسلامي.

أتت بعد ذلك، مقاربات مختلفة على شكل مفردات وطنيَّة وإيديولوجيَّة، يمكن إيجادها ضمن أعمال بعض الكُتَّاب العرب. ومن المثير للفضول أنَّ معظم هؤلاء أعضاء نشطون في الأقليَّات المسيحيَّة في البلدان العربيَّة، وهم أنفسهم مقيمون في غرب أوروبا أو الولايات المتحدة. وكمثال جيد على ذلك بين أيدينا مقال لسوسيولوجي قبطي يعيش في باريس، وهو أنور عبد الملك، مقال نُشر في مجلة اليونيسكو المسمَّاة **ديوجين** سنة 1963، أي سنة أو ما يقارب السنة على نشر كتيّب محمَّد البهي في القاهرة. يقدّم الدكتور عبد الملك في هذا المقال المُعنون «الاستشراق في أزمة» ما أصبح اليوم أحد أهمّ الاتهامات ضدَّ المستشرقين. إنَّهم «أورو- مركزيون» لا يولون اهتماماً كافياً بالدارسين والدراسات والمناهج والإنجازات في العالم الأفرو- آسيوي، إنَّهم مهووسون بالماضي ولا يُظهرون اهتماماً كافياً بالتاريخ الحديث للشعوب «المشْرقيَّة» (في

4- كما ورد في كتاب محمَّد البهي (من إضافة المترجم).

حين اشتكى ناقدون حديثاً من الضدّ تماماً)، إنَّهم لا يولون اهتماماً كافياً للأفكار المعروضة من قبل العلوم الاجتماعيَّة، وخصوصاً المنهجيَّة الماركسيَّة.

كُتبت مقالة الدكتور عبد الملك بشغف واضح، وهي تعبير عن قناعات راسخة، وتبقى، على كلٍّ، داخل حدود النقاش الفكري، وهي مؤسسة بوضوح على دراسة متأنية، رغم أنَّها غير متعاطفة مع الكتابات الاستشراقيَّة. وعبد الملك مستعد للاعتراف بأنَّ الاستشراق ليس شريراً في جوهره، وأنَّ المستشرقين أنفسهم قد يكونون ضحايا للمجال.

أتت تيمة جديدة عبارة عن طلل: مقال منشور في مجلة في بيروت في يونيو 1974، وكتبت من قبل بروفيسور يدرّس في جامعة أمريكيَّة، وسيتَّضح طرحها في اقتباسين آتيين:

«وقد كان لهذه الهيمنة الصهيونيَّة العلميَّة على الدراسات العربيَّة في أمريكا أثرها الواضح في السيطرة على ما يُنشر من دراسات وبحوث ودوريات وتنظيمات مهنيَّة. فقد أصدر هؤلاء عدداً من الكتب والدراسات التي يظهر للجاهل تقيدها بالعلميَّة إلا أنَّها تشوّه التاريخ والواقع العربي، وتسيء إلى النضال العربي في سبيل التحرير، وتتستر بهذا اللباس العلمي لإرسال جواسيس وعملاء لأجهزة الأمن الأمريكي والإسرائيلي لإجراء دراسات ميدانيَّة في مختلف البلاد العربيَّة... هناك حقائق مذهلة كثيرة يحسن بالمسؤولين العرب أن يُتابعوها ليتمكَّنوا من التمييز بين العلم الشرعي النزيه الذي يقوم به بعض الأساتذة الأمريكيين، وذلك الذي يقوم به الطلبة والأساتذة بدافع الأمن والسيطرة الأمريكيَّة. ويجدر بالمسؤولين ألَّا يستخدموا الثروة العربيَّة في خدمة المصالح الأمريكيَّة الإسرائيلِّية، وأن يفحصوا ما يُطلب إليهم من دعم مادي أو معنوي فحصاً دقيقاً أميناً، وألَّا يُستخدم المال العربي لإضعاف العرب وتشويه سمعتهم والإساءة إليهم»[5].

هذا نص مفيد قد يساعدنا كثيراً على فهم سياسات التطوُّر الأكاديمي في الدراسات الشرق الأوسطيَّة في المرحلة التي تلت.

أتى هجوم آخر على «المستشرقين» من مجموعة ماركسيين، ويظهِر جدلهم عدداً من الغرائب. أحدها افتراض أنَّ للمستشرقين تصوراً أو جهة موالين لها، وهو ادعاء تكفي معرفة بسيطة بكتابات المستشرقين لدحضه.

إنَّ معظم هؤلاء النقاد ليسوا مستشرقين. ولا يعني هذا أنَّهم يرفضون الشعار أو الأرثوذوكسيَّة الاستشراقيَّة، والتي لا توجد في الواقع، بل يعني أنَّهم لا يملكون مهارات المستشرق التي يمارسها مع اهتمام أقلّ من كلٍّ من المستشرقين الماركسيين وغير الماركسيين. فمُعظم الكتابة الماركسيَّة الجادَّة عن

5- أبو لغد إبراهيم. الآداب. بيروت، الجزء 12، العدد 6، يونيو 1974.

تاريخ الشرق الأوسط أُنجزت من قبل ماركسيين مستشرقين، وهؤلاء تلقوا تدريباً على المناهج نفسها، كما أنَّهم طلبة التخصص نفسه، كزملائهم من غير الماركسيين، أو من كتَّاب يعتمدون على كتابات دارسين مستشرقين، سواء الماركسيين أو غير الماركسيين في علاقتهم مع المواد التي يؤسّسون عليها تحليلهم واستنتاجاتهم.

وكمثال جيد على هذا نورد كتاب بيري آندرسون، وهو دراسة فذَّة بعنوان **أنساب الدولة المطلقة،** ورغم كونه مهمَّاً ومدروساً إلا أنَّه يؤسّس تعامله مع قضايا شرق أوسطيَّة وإسلاميَّة عموماً على مصادر ثانويَّة، بمعنى على أعمال المستشرقين، ليس هناك طريق آخر، إلا إذا كان الدارسون طبعاً ميالين للعودة إلى وسيلة يائسة لتعلم المهارات الأساسيَّة وقراءة المصادر الأوليَّة. لكنَّ هذا، إلى جانب صعوبته وتطلبه للوقت، سيكون له الامتياز الإضافي؛ وهو أنَّ الدارسين أنفسهم سيكونون مكشوفين لتهمة الاستشراق. فقد أنجز ماركسيون كمكسيم رودنسون في فرنسا وآي. بي. بيتروشيفسكي في روسيا إسهامات مهمَّة لتاريخ الشرق الأوسط، وهي إسهامات معروفة ومقبولة حتى من قبل هؤلاء ممَّن لا يشاركونهم التزاماتهم الإيديولوجيَّة وولاءهم السياسي. كما أنَّهم بدورهم يُظهرون في أعمالهم إجلالاً لزملائهم المستشرقين، رغم أنَّهم ذوو قناعات مغايرة للماركسيين، ويعملون وفق تصوُّر مختلف لطبيعة الدراسات. كان هناك حتى الآن محاولات قليلة من قبل المناهضين للمستشرقين في الغرب من أجل إنتاج مساهماتهم في التاريخ العربي، وعندما حاولوا لم تكن محاولاتهم ناجحة.

إنَّ إدوارد سعيد اليوم هو المساند الأهم للمُعادين للاستشراق في الولايات المتحدة، وقد نشر كتابه **الاستشراق** أولاً سنة 1978، واستقبِل الكتاب بسيل من المراجعات والمقالات والبيانات المختلفة. ولهذا الكتاب أطروحة مفادها أنَّ «الاستشراق ينهل من تقارب خاص بين بريطانيا وفرنسا والمشرق، والأخير كان حتى بدايات القرن التاسع عشر يُحيل على الهند والأراضي المقدَّسة» (ص 40)، وليثبت هذه الفكرة قام السيد سعيد بعدد من القرارات التعسفيَّة، فقد اختزل مشرقه إلى الشرق الأوسط فقط، واختزل الشرق الأوسط ذاته إلى جزء من العالم العربي. إنَّه يعزل الدراسات العربيَّة من سياقيْها التاريخي والفيلولوجي عبر إقصائه للدراسات التركيَّة والفارسيَّة من جهة، والدراسات الساميَّة من جهة أخرى. فمنطقة الاستشراق وفترته محدودتان عنده على قدم التساوي.

وفي سبيل إثبات طرحه هذا، وجد السيد سعيد أنَّه من الضروري أن يُموقع ظهور الاستشراق في أواخر القرن الثامن عشر ويُموضع مراكزه في بريطانيا وفرنسا. بينما كان الاستشراق مؤسساً في القرن السابع عشر: فكرسي اللغة العربية في كامبريدج مثلاً تمَّ تأسيسه في 1633، وكانت مراكزه الأساسيَّة في

ألمانيا وبلدان قريبة. وللحقيقة، فتاريخ الدراسات العربيَّة في أوروبا دون ألمانيا ليس له معنى، كحال تاريخ الموسيقى أو الفلسفة الأوروبيَّة مع الحذف نفسه.

حاول السيد سعيد تبرير هذا الإجراء كالآتي:

«ثمَّ إنَّني أومن أيضاً بأنَّ مجرَّد النوعيَّة والاتساق اللذين تمتلكهما الكتابات البريطانيَّة والفرنسيَّة والأمريكيَّة حول الشرق يسموان بها إلى مرتبة فوق العمل الحاسم دون شك، الذي أنتج في ألمانيا وإيطاليا وروسيا وأمكنة أخرى. لكنَّني أومن بأنَّ من الصحيح أيضاً أنَّ الخطوات الرئيسة في تراث البحث الاستشراقي قد حدثت أولاً، إمَّا في بريطانيا أو في فرنسا، ثم أحكِمت وأتقِنت في ألمانيا...، وكان ما فعله تراث الاستشراق الألماني هو أنَّه شذَّب ونقّى وأحكم تقنيات كان مجال تطبيقها نصوصاً، وأساطير، وأفكاراً ولغات جمعتها من الشرق، بمعنى حرفي تقريباً، بريطانيا وفرنسا الإمبراطوريتان»[6].

من الصعب فهم ما تقوله الجملة الأخيرة. تمَّ إيجاد النصوص بمعنى المخطوطات ومواد أخرى مكتوبة في المشرق من قبل زائرين غربيين. لكنَّ المجموعة ليست أقلَّ من هؤلاء في «بريطانيا وفرنسا الإمبراطوريتين». كيف بالتدقيق «يجمع» أحدنا لغة حرفياً، أو بطرق أخرى؟ قد يبدو من المتضمن أنَّ الإنجليز والفرنسيين كانوا يقصدون بدراستهم للعربيَّة اقترافاً لنوعٍ من الإهانة. لم يستطع الألمان في بداية عملهم المتعلق بـ«تشذيب وتنقية» هذه اللغات حتى كان البريطانيون والفرنسيون قد استولوا عليها من العرب. بينما العرب الذين اختُلست منهم هذه اللغات، مع الأساطير والأفكار (مهما عنى ذلك) كانوا قد حُرموا بالمقابل.

ليست الفقرة كلها خاطئة فقط، بل سخيفة. إنَّها تُظهر جهلاً مقلقاً بِحال الدارسين وبالمعرفة. لا يُهدّأ قلق القارئ للحصول المتكرّر لمفردات قويَّة كـ «مناسب» و«جمع» و«لي» و«نهب» وحتى «اغتصاب» لوصف نمو المعرفة عن الشرق في الغرب. يبدو بالنسبة إلى السيد سعيد أنَّ المعرفة والعلوم هي سلع توجد بكميات محدودة، وقد انتزع الغرب قسطاً غير عادل منها، وكذلك موارد أخرى، وترك الشرق ليس فقط مُفقّراً، بل أيضاً جاهلاً وغير علمي. وعدا عن تجسيده لنظريَّة معرفة غير معروفة، يعبّر السيد سعيد عن مقتٍ شديد للإنجازات المعرفيَّة العربيَّة الحديثة، وهذا أسوأ من أيّ شيء يعزوه لمستشرقيه الشيطانيين.

تتكرَّر تيمة الاستيلاء والتملك العنيف مع إيحاءات جنسيَّة في نقاط عدَّة في الكتاب. «ولم يكن الأمر المهم في القسم الأخير من القرن التاسع عشر ما إذا كان الغرب قد اخترق الشرق وتملكه، بل بالأحرى كيف شعر البريطانيون والفرنسيون أنَّهم فعلوا ذلك.» (ص 221) أو مرَّة أخرى:

6- الاقتباس كما ورد في ترجمة كمال أبو ديب. الاستشراق. مؤسسة الأبحاث العربيَّة. ط7، 2005 (الصفحات 51 و53). (كلُّ الاقتباسات الواردة في المقال أخذت من ترجمة كمال أبو ديب، وسأكتفي بذكر الصفحة فيما تبقى من المقال). المترجم.

«...إنَّ مكان أقاليم أضعف وناقصة النمو كالشرق اعتُبرت شيئاً يتطلب الاهتمام الفرنسي والاختراق، والإخصاب المنوي، أي الاستعمار بإيجاز...، وقد فاض الباحثون والإداريون والجغرافيون والوكلاء التجاريون بنشاطهم المتفجّر حيويَّة على الشرق الكسول الأنثوي». (ص 229)

وتقع ذروة هذه الأوهام الجنسيَّة المُسلطة (إن جاز التعبير) في مقطع السيد سعيد البارع، حيث يقرأ ويُفصّل تأويلاً عدائياً وسخيفاً بالكامل للتعريف المُعجميّ لأصل عربي اقتبستُه من القواميس العربيَّة الكلاسيكيَّة[7].

إنَّ قيود الزمان والمكان والمحتوى التي يفرضها السيد سعيد بقوة على موضوعه، ورغم أنَّها تشكل تشويهاً جادّاً، إلا أنَّها من دون شك شيء ضروري ومناسب لهدفه، لكنَّ هذه القيود غير كافية لتحقيق ذلك على كلّ حال. فضمن المستعربين ودارسي الإسلام البريطانيين والفرنسيين، الذين شكَّلوا موضوع دراسته الظّاهرة، مجموعة من الشخصيات الرائدة، وهم إمَّا غير مذكورين كـ(كلود شاهين، وإي. لوفيبروفينسال، وهنري كوربان، وماريوس كونراد، وشارلز بيلَّات، وويليام وجورج مارسايز، ولكلٍّ منهم مساهمات مهمَّة) أو ذكروا باقتضاب، بشكل عابر كـ(آر. آي نيكولسون، وغوي لوسترانج، والسير توماس آرنولد، وإي. جي. براون). فقد أقدم السيد سعيد حتى في ذكره لهؤلاء الذين يقتبس من أعمالهم على خيارات تعسّفيَّة ملحوظة. إنَّ ممارسته السائدة هي فعلاً حذف مساهماتهم المهمَّة في التراث، والتركيز عوضاً عن ذلك على كتابات ثانويَّة وعرضيَّة.

7- في نقاش لبعض المفردات الإسلاميَّة لـ«الثورة» بدأت بتفحص كلّ لفظ، تبعاً للممارسة العربيَّة السائدة، مع نظرة مقتضبة للمعاني الأساسيَّة للأصل العربي الذي تُعتبر مصدره. إحدى الفقرات التي تقدّم المصطلح الأكثر استعمالاً في العربيَّة الحديثة يبدأ كالتالي: «أصل ثَور في العربيَّة الكلاسيكيَّة يعني النهوض (مثلاً بالنسبة إلى الجمل)، يهتاج أو يثار، ومن هنا، خصوصاً في الاستعمال المغربي، أن تثور. إنَّها تستعمل غالباً في سياق تأسيس سيادة مستقلة تافهة، وهكذا مثلاً يُسمى المدعوون ملوك الطوائف الذين حكموا في القرن الحادي عشر في إسبانيا بعد تفكك خلافة قرطبة ثُواراً (مفردها ثائر)، يعني الاسم ثورة أولاً الإثارة، كما في العبارة الواردة في الصّحاح، وهو قاموس عربي قروسطوي مِعياري، <انتظر حتى تسكن هذه الثورة>، توصية مهمة جداً. يُستعمل الفعل من قبل الإيجي على شكل ثوران، أو إثارة فتنة كواحد من الأخطار التي لن تشجع المرء على ممارسة واجب المقاومة للحكم الفاسد. الثور هو اللفظ المستعمل من قبل الكتاب العرب في القرن التاسع عشر للثورة الفرنسيَّة، واستعمل من قبل خلفائهم للثورة المستحسنة الداخليةّ والخارجيَّة لزمننا.»

(المفاهيم الإسلاميَّة للثورة في «الثورة في الشرق الأوسط ونماذج دراسات أخرى» تحرير بي. جي. فاتيكيوتس. مطبعة Roman and Littlefield، 1972، الصفحات 38-39).

يتبع هذا التعريف في شكله ومضمونه القواميس المعياريَّة الكلاسيكيَّة العربيَّة، وقد يُعرف من قبل أي أحد على صلة مع الصناعة المُعجميَّة العربيَّة. كان استعمال صورة الجمل محايداً بالنسبة إلى العرب القدامى كصورة الفرس بالنسبة إلى الأتراك، وصورة السفينة بين الشعوب المطلة على البحر في الغرب.

فهم سعيد الفقرة باختلاف «يلمّح ربط لويس بين الثورة وبين جمل ينهض وبالهيجان بشكل عام (لا بالصراع من أجل قيم) بصراحة تتجاوز ما هو من عادته إلى أنَّ العربي لا يكاد يكون أكثر من كائن عصابي جنسي. فكلُّ لفظة من الألفاظ أو العبارات التي يستخدمها لوصف الثورة مشربة بالجنسيَّة: حرك، أثار، يقوم. لكنَّها في معظمها جنسانية «سيئة» كتلك التي ينسبها إلى العرب. وفي نهاية المطاف، فما دام العرب غير مجهزين في الواقع للعمل الجاد، فإنَّ هيجانهم «ثورانهم» الجنسي لا يتجاوز نبله جملاً يقوم. وبدلاً من الثورة، ثمَّة الفتنة، وتأسيس «دولة ذات» سيادة صغيرة، ثم مزيداً من الهيجان، ويعادل ذلك القول إنَّ العربي بدلاً من الجماع غير قادر على أن يحقق إلا المداعبة، وجلد عميرة، والإدخال والإخراج قبل القذف. وهذه، في اعتقادي، هي تضمينات «كلام» لويس، رغم كلّ ما قد يحيط بمعرفته من براءة، وما في لغته من لهجة حديث رفيعة». (ص 313 من ترجمة أبوديب) والتي يمكن لأحدنا أن يردَّ عليها بكلمات دوق ويلينغتون: «إن آمنت بذلك، تستطيع الإيمان بكل شيء».

وكمثال على هذا نورد تعامله مع الدارس الإنجليزي «إدوارد لِيْن» الذي عاش في القرن التاسع عشر، والذي يُدرس أحياناً ويُساء إليه أحياناً أخرى بسبب كتابه عن المصريين الحديثين. هذا العمل هو نتاج لإقامته في مصر في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، وهو عمل مهم وذو فائدة عظيمة. ويسربل بالعار في عرف سعيد إلى درجة التسفيه مع إغفال أعماله الأخرى قيد حياته. فمعجمه المتعدّد الأجزاء العربي- الإنجليزي مثلاً يبقى إنجازاً مهمَّاً للاستشراق الأوروبي ومعلماً في الدراسات العربيَّة، وليس للسيد سعيد أيُّ شيء ليقوله عن هذا.

كلُّ هذا، أي إعادة الترتيب التعسفي للخلفيَّة التاريخيَّة والخيار النّزوي للبلدان والأشخاص والكتابات، غير كافٍ بالنسبة إلى السيد سعيد ليثبت قضيته، ومفروض عليه أن يعود إلى وسائل إضافيَّة. إحداها إعادة تأويل الفقرة التي يقتبسها إلى درجة الخروج عن القصد الظاهر للكتاب. وسيلة أخرى هي إقدامه على طرح صنف «المستشرق» على سلسلة كاملة من الكُتَّاب: أدباء كشاتوبريان ونرفال، وإداريون كاللورد كرومر وآخرون، والذين كانت أعمالهم على صلة بتشكيل المواقف الثقافيَّة الغربيَّة، والتي ليس لها أيَّة علاقة بالتقليد الأكاديمي للاستشراق، وذلك هدف السيد سعيد الأساسي.

لم يكفِ كلُّ هذا، فمن أجل الإفصاح عن موقفه، وجد السيد سعيد أنَّه من الضروري إطلاق سلسلة من الاتهامات الطائشة. وهكذا بالحديث عن المستشرق الفرنسي الراحل، أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر سلفستر دو ساسي، يلاحظ السيد سعيد أنَّه «هجم على سجلات المحفوظات الشرقيَّة...، ثم قام باسترجاع ما كان قد عزله من نصوص وعالجها...».(ص 149) إن كان لهذه الكلمات من معنى، فهو أنَّ «دي ساسي» كان مخطئاً في الوصول لهذه الوثائق، ثم اقترف جريمة العبث بها.

وأقلُّ ما يقال عن هذا التشهير المثير للغضب في حقّ دارس عظيم هو أنَّه عارٍ عن الحقيقة.

هناك اتهام أكثر عُموميَّة ضدَّ المستشرقين، ومفاده أنَّ «أفكارهم الاقتصاديَّة لم تتجاوز أبداً تأكيد عجز الشرق الأساسي عن التجارة، والتبادل التجاري والعقلانيَّة الاقتصاديَّة. وفي ميدان الدراسات الإسلاميَّة بقيت هذه الشعائر اللغويَّة طاغية لمئات السنين حرفياً، إلى أن ظهرت دراسة مكسيم رودنسون المهمَّة **الإسلام والرأس ماليَّة** عام 1966» (ص 263). قد يكون م. رودنسون أوَّل من يعترف بسخافة هذه المقولة التي لم يتجشم كاتبها عناء تعريف نفسه بمستشرقين أوائل كآدم ميز، وجي. وإيتش كرايمرز، ودابليو. بيوركمان، وفي. بارتولد، وتوماس آرنولد، وآخرين عديدين. وكلهم عالجوا الأنشطة الاقتصاديَّة الإسلاميَّة، كان آرنولد

إنجليزياً. يلاحظ رودنسون عرضاً ملاحظة مثيرة للاهتمام، وهي أنَّه مع بعض تحليلات السيد سعيد المتّبعة حتى النهاية «سنسقط في شعار شبيه بالكامل بالنظريَّة الزدانوفستيَّة Zhdanovist للعلمين الاثنين»[8].

لا يُتوقَّع من مؤرخ للعلوم أن يكون عالماً، لكن يُتوقّع منه أن تكون له دِراية أساسيَّة بالأبجديات العلميَّة. على مؤرخ الاستشراق كذلك، وهذا من اختصاص المؤرخين والفيلولوجيين، أن يملك معرفة بالتاريخ والفيلولوجيا اللذين يُعتبران ضروريين. يُظهر السيد سعيد نقاط ضعف مدهشة. يقول: «سيطرت بريطانيا وفرنسا على شرقي المتوسط منذ نهاية القرن السابع عشر تقريباً» (ص51)؛ أي عندما كان الأتراك العثمانيون، الذين حكموا شرق المتوسط، يغادرون النمسا وهنغاريا. ونؤكد أنَّ إعادة ترتيب التاريخ هذه ضروريَّة لأطروحة السيد سعيد. توجد حالات أخرى تعود ظاهرياً إلى الجهل غير الجدلي، مثلاً اعتقاده بأنَّ الجيوش الإسلاميَّة احتلت تركيا قبل شمال إفريقيا (ص 89) أي أنَّ القرن الحادي عشر قدِم قبل القرن السابع، وأنَّ مصر ضُمّت[9] إلى بريطانيا (ص 66)، في حين أنَّ مصر احتُلت وتمَّت السيطرة عليها، ولم يكن هنالك ضم annexation أو إدارة مباشرة direct administration.

يوبخ سعيد في فقرة استثنائيَّة الفيلسوف الألماني فريدريك شليغل، لأنَّه حتى بعد أن «نبذ الاستشراق وتبَّرأ منه، فإنَّه كان ما يزال متشبثاً باعتبار أنَّ للسنسكريتيَّة والفارسيَّة من جهة واليونانيَّة من جهة أخرى وشائج أكثر عمقاً ممَّا بينها وبين اللغات الساميَّة والصينيَّة والأمريكيَّة والأفريقيَّة.» (ص 122). يبدو أنَّ السيد سعيد يعارض هذه النظرة، التي لن تتلقى أيّ تحد من قبل أيّ فيلولوجي جاد، كما أنَّه يعتبرها من بقايا استشراق شليغل السابق.

لدى السيد سعيد فجوات مفاجئة في معرفته بالعربيَّة والإسلام؛ فالعبارة العربيَّة التي يقتبسها خاطئة في التهجئة وسيئة الترجمة، وعدد من الكلمات العربيَّة الأخرى القليلة التي تظهر على صفحات عمله هي بالتشابه مُحرفة. إنَّه يفسّر المصطلح الإسلامي الثيولوجي التوحيد بمعنى «وحدانيَّة الله المفارقة» God's transcendental unity (يُترجمها أبو ديب «وحدانية الله الفائقة التجاوزيَّة» ص271) بينما تعني الكلمة في الواقع توحيد الله، أي الإقرار أو الاعتراف بوحدانيَّة الله كما تفيد الكلمة العربيَّة.

ويتسع خرقُ السيد سعيد ليشمل مناحي أخرى من كتابه. ففي الصفحة (183) يقتبس عدداً من المقاطع الشعريَّة من غُوته في أصلها الألماني، ويضيف إليها ترجمة إنجليزيَّة تضم خطأ بسيطاً غريباً «Gottes ist

---

8- مكسيم رودنسون. La Fascination de L'islam. باريس 1980، ص 14، «العلمين الاثنين» زدانوف وخلفاؤه ومقلدين سبق تعريفهم باختلاف حسب الانتماء الإيديولوجي، والهدف السياسي، والأصول الاجتماعيَّة وحتى الإثنية للعلماء.

9- يستغل هنا برنارد لويس، كمؤرخ، في نقده لإدوارد سعيد دقة المصطلحات التأريخيَّة، فهناك فرق بين مصطلحات الضم مثلاً بالنسبة إلى الجزائر، والحماية بالنسبة إلى المغرب، والانتداب في حالة سورية، وكلها مصطلحات تاريخيَّة تنغيّا الإشارة إلى فروق بين أشكال الاستعمار الحديث. (من إضافة المترجم).

der Orient !//Gottes ist der Okzident !» لا تعني، كما يبدو أنَّ السيد سعيد يعتقد، «الله هو الشرق، الله هو الغرب»، بل تعني «للربِّ الشرق، وللربِّ الغرب»[10]، أي كلٌّ من الشرق والغرب ملك للرَّب.

ليس الألمان الوحيدين الذين تمَّ حذفهم من دراسة السيد سعيد؛ فالملفت للنظر أنَّه حذف الدراسات الروسيَّة أيضاً، رغم قدر مساهمتها الكبير إلا أنَّها تبقى أقلَّ من مساهمة الألمان، أو حتى من مساهمة البريطانيين والفرنسيين. أمكن، على كلّ حال، أن تكون إضافتها أكثر فائدة له بمعنى آخر، من حيث إنَّها، خصوصاً في معالجتها للأقاليم الإسلاميَّة وأخرى سوفيتيَّة غير أوروبيَّة، على صلة وثيقة بالدارسين البريطانيين أو الفرنسيين الذين يدينهم بسبب نوع الكتابة المُغرضة المُحتقِرة التي يمقتها. من المثير للفضول، على كلٍّ، أنَّ الروس حتى في مقولاتهم الأكثر سباً وتجريحاً في حقّ الإسلام قد نَعِموا باستثناء تام من قيود السيد سعيد.

بالكاد سيكون هذا الحذف عائداً إلى جهل سعيد بالروسيَّة. فهذه المُعيقات لم تمنع السيد سعيد من معالجة مواضيع أخرى، وفي مطلق الأحوال فإنَّ ملخصات التراث السوفيتي الاستشراقي متوفرة بالإنجليزيَّة والفرنسيَّة. قد يقدّم الهدف السياسي لكتاب السيد سعيد تفسيراً. تجدر الإشارة إلى أنَّ سعيد يعتقد أنَّ جنوب اليمن هو «الديمقراطيَّة الشعبيَّة الراديكاليَّة الأصيلة الوحيدة في الشرق الأوسط»[11].

لا بد أنَّ الكاتب المستعد لأخذ هذا الطرح كما أتى مستعد لأن يدعَ الأكاديمي إس. بي. تولستوف الذي رأى في محمَّد الأسطورة الشامانيَّة، والبروفيسور إي. آي. بيلاييف الذي اعتبر القرآن بأنَّه التعبير الإيديولوجي للطبقة الحاكمة المالكة للعبيد، وأنَّه يعُجّ بعقليَّة ملكيَّة العبيد، يفلتون حتى من صفعة على الرُّسغ.

هناك نقطة أخيرة وربَّما الأكثر إثارة للدهشة، وهي موقف السيد سعيد من الشرق والعرب وآخرين، كما كشف عن ذلك كتابه، وهي أكثر سلبية من معظم الكُتَّاب الإمبرياليين المتغطرسين الذين يُدينهم. يتحدث السيد سعيد عن (الكتب والمجلات باللغة العربية، واليابانية، واللهجات الهنديَّة المختلفة، واللغات الشرقيَّة الأخرى)...(ص 319) هذا الجرد المُزدري، وخصوصاً ادّعاء أنَّ ما يتحدثه الهنود ويكتبونه ليس لغات، بل لهجات، جدير بمفوّض مقاطعة كولونيالي في بداية القرن التاسع عشر.

وما يثير العجب أكثر هو إهمال السيد سعيد، أو ربَّما جهله بالدراسات والكتابات الأخرى. «ما من باحث عربي أو إسلامي يستطيع المخاطرة بتجاهل ما يحدث في المجلات البحثيَّة والمعاهد والجامعات في الولايات المتحدة وأوروبا، غير أنَّ العكس ليس بصحيح. ليس هناك، مثلاً، مجلة رئيسة واحدة للدراسات العربيَّة تصدر في العالم العربي اليوم» (ص 320). المقولة الأولى بالكاد تقريع والباقي ليس صحيحاً. يبدو

10- يترجم أبو ديب هذا المقطع الشعري كالتالي «للرب هو الشرق، وللرب هو الغرب»، وهي ترجمة حرفيَّة ركيكَة. يدعي برنارد لويس بأنَّ المقطع ورد عند إدوارد سعيد كالآتي: «God is the Orient. God is the Occident». (المترجم)

11- مراجعة الكتب في .New York Times، 31 أكتوبر 1976.

أنَّ السيد سعيد غير مدرك للإنتاج الغزير للمجلات والبحوث والطبعات، ودراسات أخرى تنشر من قبل جامعات وأكاديميات ومجتمعات معرفة ومؤسسات دراسيَّة أخرى في بلدان عربية مختلفة[12]. يبدو كذلك أنَّه غير مدركٍ لأدب نقد الذات الوفير الذي يزداد وفرة، ويُنجَز من قبل كُتَّاب عرب يحاولون كشف بعض أخطاء ونقاط ضعف المجتمع العربي والثقافة العربيَّة. وبفعلهم هذا، بشكل أكثر دقة، تمكنوا من جرد بعض الملاحظات التي يهاجم بسببها السيد سعيد المستشرقين، الذين يتهمهم فيها بالعنصريَّة والعدائيَّة والرغبة في السيطرة. ولا يبدو أنَّه يعرف العدد الكبير من أعمال كُتَّاب عرب حول موضوع الاستشراق، أو على الأقل لا يذكرهم[13].

إنَّ نقاط ضعف كتاب السيد سعيد تتّضح أكثر مع عدم قدرة كاتبه على التعامل مع التعليقات النقديَّة. كانت ردوده على هذه وعيداً وسبَّاً، وملأى بالصدح الفارغ. كمثال، يقع في نقاش السيد سعيد تغطية الصحافة الأمريكيَّة للأزمة الإيرانيّة، عندما ظهر هذا في مراجعة الصحافة في جامعة كولمبيا كتبت إلى المحرر أقول:

«في (أزمة) إيران» اقتبس سعيد فقرتين مقتطفتين من كتاباتي، وربطهما مع بعضهما بعضاً، وقدَّم للقارئ انطباعاً بأنهما تجسّدان تعليقاً على أحداث حديثة العهد في إيران. بينما أتت العبارتان منفصلتين في كتاب نُشر منذ ثلاثين سنة مضت، وتحيل على بعض مظاهر انحطاط الحضارة الإسلاميَّة في أواخر القرون الوسطى. لم تُقِم مقالة نيويورك تايمز، التي أخذ منها سعيد هاتين العبارتين، أي ربط مشابه، ولا تترك انطباعاً مشابهاً.»

كان جواب سعيد الوحيد أنَّ عليَّ أن أُوجّه شكواي إلى فلورا لويس (كاتبة المقالة في نيويورك تايمز) «بما أنَّها كانت أوَّل من استخدم العبارتين من عملك، وليس أنا». كانت فلورا لويس فعلاً هي التي استعملت العبارتين، بينما أساء سعيد استعمالهما، كما توضح دراستي. وحتى إن كان سعيد، رغم خبرته المعلن عنها بالمستشرقين وكتاباتهم، ضُلّل من قبل مقالة الجريدة، فهذا لا يبرر تكريره للخطأ عندما أعاد نشر المقالة نفسها في مجلة Harper's[14]، ومرَّة ثالثة في كتابه **تغطية الإسلام**.

ويقدّم الكتاب نفسه **تغطية الإسلام** أمثلة عديدة على ازدراء السيد سعيد للوقائع. أحدها يكفي، وأتى على شكل معالجته لدراسات الشرق الأدنى في جامعة برينستون. يقول السيد سعيد إنَّ «برينستون» «لديها منهاج معروف ومحترم جداً لدراسات الشرق الأدنى، كانت تسمى حتى حديثاً شعبة الدراسات الشرقيَّة، أُسّست

12- مثلاً: «مراجعة الأكاديميَّة العربيَّة في (دمشق)، الأبحاث في (بيروت)، ومراجعة التاريخ المغربي بـ(تونس) ونشرات كليات الآداب والعلوم الاجتماعيَّة بالقاهرة والإسكندريَّة وبغداد وجامعات أخرى.

13- مثلاً: كتابات الطيباوي، والخطيبي، وعمل نجيب العقيقي ذو الأجزاء الثلاثة بالعربيَّة عن الاستشراق والمستشرقين، وهو بكل تأكيد المعالجة الأكثر شموليَّة للموضوع في أيَّة لغة.

14- مراجعة الصحافة بكولومبيا مارس وأبريل ويوليوز وغشت 1980، هاربرس، يناير 1981، مثال آخر يوجد في التقاء السيد سعيد بمالكوم ياب في تايمز ليتراري سابليمنت (لندن) 9 أكتوبر، 27 نونبر، و4 دجنبر 1982.

من قبل فيليب حتّى منذ نصف قرن تقريباً. ويسيطر على توجهات البرنامج اليوم، كحال مناهج أخرى عن الدراسات الشرقيَّة، علماء المجتمع والسياسة. لا يُمثّل الأدب الكلاسيكي الإسلامي والعربي والفارسي جيداً في المقرر، وفي الكليَّة أكثر من الاقتصاد الحديث والسياسة والتاريخ والسوسيولوجيا للشرق الأدنى.» (ص 136 من الطبعة التي يُحيل عليها برنارد لويس).

ليست المقولة صحيحة في كلّ مناحيها، فقد انقسمت الشعبة السابقة للدراسات الشرقيَّة سنة 1969، (أي بالكاد حديثاً) إلى شُعبتين: دراسات الشرق الأقصى، والأدنى. وتتشكل دراسات الشرق الأدنى من خمسة عشر بروفيسوراً، معظمهم مختص في التاريخ والأدب وفي مراحل ما قبل الحداثة، ولا أحد منهم يمكن وصفه بأنَّه «عالم سياسة». وما «المنهاج في دراسات الشرق الأدنى» إلا وسيلة إداريَّة تضمن التلاقي والتعاون بين المختصين بالشرق الأدنى في الشعبة، وبين دارسين في شعب أخرى ذات اهتمام مرتبط بالشرق الأدنى.

يبدو من مناقشته كذلك لدروس برينستون أنَّ السيد سعيد لم ينظر إلى الأوراق أو حتى المنهاج، ونتيجة ذلك أنَّ بيانه حولها أتى مرتبكاً ومتضادّاً وغير دقيق تماماً. لهذا يؤكد أنَّه في أحد الحلقات الدراسيَّة ومؤتمر حول العبوديَّة في إفريقيا «لم يتمّ استدعاء حتى دارس واحد من العالم العربي المسلم» (ص 137 من العمل الذي يحيل عليه برنارد لويس)، بينما كان أحد المُخطّطين للحلقة الدراسيَّة في الواقع مؤرخاً مسلماً مميّزاً من السودان. لقد قضى هذا الأخير عدَّة أشهر في برينستون يُعدُّ للمؤتمر، وألقى محاضرته الافتتاحيَّة. وشارك رفقة دارسين آخرين في مشروع كان هدفه، حسب كلمات سعيد، «الإساءة إلى العلاقات بين إفريقيا والعرب المسلمين» (ص 137 من العمل الذي يحيل عليه برنارد لويس). وتُظهر معالجة سعيد لأنشطة أكاديميَّة أخرى بحثه الممسوس عن حوافز عدائيَّة، وبالازدراء نفسه للحقائق والأدلة، وحتى الأرْجحيَّة.

وعلى الرغم من ردّه السلبي غالباً، ضمن مراجعين في المجلات العلميَّة (مع الاستثناء الغريب لمجلة The Journal of the American and Oriental Society، مرجع المستشرقين الأمريكيين). كان لـ«**استشراق**» سعيد تأثير كبير. ويطرح نجاحه، سواء كان للتقدير أو للفضيحة، أسئلة مهمَّة حول المؤسسة الأكاديميّة الأمريكيَّة من جهة، والعالم العربي من جهة ثانية.

يطرح الأول مشكلاً أصعب، والذي اقتُرِحت له حلول عدة. وقد رأى بعض الملاحظين أنَّ الترحيب بكتاب سعيد كتمظْهُر لـ«الشّر الأنكلو-ساكسوني»، لا يربو عن كونه رغبة مازوشيَّة في جلد الذات. وجد هذا التأويل بعض الدعم في فرنسا، حيث لم يترك كتاب سعيد انطباعاً جيداً، وقد كتبت عنه Le Monde مراجعة سلبيَّة. ويعزو آخرون نجاحه إلى قيوده القاسية على التراث النصي والفيلولوجي، التي تقدّم بشكل

غير مباشر ضماناً للجهل، وللجهلة، من الشريحة الكبرى، غير الممثلة في الجامعات. إنَّه أقلُّ إشكالاً أن توسم مُحبَّاً للعرب على أن تُوسم بأنَّك دارس عربي.

نعتقد أنَّ السؤال الذي يخصُّ العالم العربي أكثر إثارة للفضول. فقد تعامل المستشرقون مع كلّ ثقافات آسيا، أي الصين واليابان والهند وإندونيسيا، ولم تكن دراساتهم محدودة في العرب، بل ضمَّت أيضاً الأتراك والفرس، وكذلك الثقافات القديمة للمنطقة. هناك اختلاف جذري، وقد يقول قائل اختلاف تام، في موقف كلّ هذه الشعوب تجاه الدارسين الذين يدرسونها من الخارج بالتقريب. فالصينيون والهنود والباقون ليسوا دائماً متيَّمين بالمستشرقين الذين يتعاملون معهم أحياناً. إنَّهم يتجاهلونهم ببساطة، وأحياناً ينظرون إليهم مع شيء من التسلي المُتسامح، وأحياناً ثالثة يتقبلونهم على طريقة تقبل الدارسين اليونانيين للهلينيين[15]. يُمكن حصر الهجوم العنيف والمهين على المستشرقين، ما عدا الرد الإسلامي ضدَّ التهديد المُبطّن من دين منافس، في مجموعة واحدة فقط ضمن الشعوب التي درسها المستشرقون، وهؤلاء هم العرب. يطرح هذا إشكالاً مثيراً للاهتمام، هو إن كان العرب يختلفون حقاً عن شعوب آسيويَّة وإفريقيَّة أخرى، أو إن كان المتخصّصون في العرب يختلفون بطريقة جادة عن مستشرقين آخرين؟

قد نجد بعض التيسير في الردّ على هذا السؤال في حقيقة مهمَّة أخرى، وهي أنَّ هذه العدائيَّة ضدَّ المستشرقين ليست كونيَّة أو حتى مسيطرة في الدول العربيَّة. فقد درّس مجموعة من المستشرقين، الذين هوجِموا بشدة من قبل المدرسة السَّعيدية ومدارس أخرى، أجيالاً من الطلبة العرب وتمَّت ترجمتهم، ونُشرت أعمالهم في الدول العربيَّة. قد أُعذَرُ ربما في ذكر أنَّ ستة من كتبي، التي يعترض على بعضها السيد سعيد بقوة، ترجمت ونشرت في العالم العربي، وأحدها حقاً تحت رعاية الإخوان المسلمين. وعلى العموم، كان هناك دارسون جادّون في جامعات عربيَّة مستعدون ليكتبوا عن المنشورات الاستشراقيَّة، ويستفيدوا منها، وحتى ليشاركوا على نطاق واسع في التجمُّعات الدَّولية للمستشرقين.

يطرح نقد الاستشراق أسئلة أصيلة عديدة. فقد قدَّم نقاد عديدون فكرة مفادها أنَّ المبدأ الذي يقود هذه الدراسات عُبّر عنه في مقولة: «المعرفة هي القوَّة»، وأنَّ المستشرقين كانوا يبحثون عن معرفة الشعوب الشرقيَّة من أجل السيطرة عليها، ومعظمهم مباشرة، كما يقول بذلك عبد الملك، موضوعياً (بالمعنى الماركسي) في خدمة الإمبرياليَّة. كان هناك دون شك مستشرقون خدموا ذاتياً أو موضوعياً هذا الادعاء، واستفادوا من الهيمنة الإمبرياليَّة. لكنَّ من السخيف ومن غير الكافي أن يؤخذ هذا كتفسير للمشروع الاستشراقي بأكمله. إن كانت ملاحقة السلطة عبر المعرفة هي الحافز الأول والوحيد الذي يُفسّر نشوء دراسة العربيَّة والإسلام في أوروبا، قبل أن يُساق الفاتحون المسلمون للخروج من أكثر أراضي شرق وغرب أوروبا حين شرع

15- نسبة إلى هيلاس: تسمية قديمة لليونان، والهلينيون يُقصد بها دارسو اليونان القديمة. (من إضافة المترجم).

الأوروبيون في الهجوم المُعادي، فلماذا ازدهرت هذه الدراسات في دول أوروبيَّة لم يكن لها يد في السيطرة على العالم العربي، وساهمت كما ساهم الإنجليز والفرنسيون مساهمة قد يقول معظم الدارسين عنها إنَّها أعظم من غيرهم؟ ولماذا كرَّس الدارسون الغربيون الكثير من المجهود لفهم واستعادة آثار الحضارة الشرق أوسطيَّة القديمة، التي نُسيت في بلدانهم منذ زمن؟

تُوجَّه تهمة أخرى إلى المستشرقين؛ وهي انحيازهم ضدَّ الشعوب التي يدرسونها، بل حتى تبنيهم لعدائيَّة بنيويَّة ضدَّ هذه الشعوب. لا أحد ينكر أنَّ الدارسين ككائنات بشريَّة أخرى عُرضة لنوع من الانحياز، معظم الأحيان لأجل موضوع دراستهم وليس ضداً عليه. يكمن الفرق الكبير بين هؤلاء الذين يعرفون انحيازهم، ويحاولون تعديله، وأولئك الذين يطلقون له العنان. (اتهامات الانحياز الثقافي وحوافز السياسة الخفيَّة قد تحظى بالمصداقيَّة إن لم يفترض المتّهِمون لأنفسهم وللروس التساهل التام.)

يقع المشكل المعرفي أبعد من سؤال الانحياز، وهو كيف بإمكان مجتمع أن يؤول إبداعات مجتمع آخر؟ يشتكي المتهِمون من الصور النمطيَّة والتعميمات الواثقة. ونؤكد أنَّه بالفعل توجد الأحكام المسبقة النمطيَّة، وليس فقط ضدَّ ثقافات أخرى، في الشرق أو في غيره، بل لأمم وأعراق وطبقات ومهن وأجيال، وأي جماعة قد يهتم بذكرها المرء داخل مجتمعنا. وليس المستشرقون ولا متّهِموهم بمعزل عن هذه الأخطار، فالسابقون على الأقل لديهم امتياز بعض الاهتمام والدقة الفكريَّة والتخصُّصيَّة.

ويبقى السؤال الأكثر أهميَّة، والأقل ذكراً بين موجة النقاد المعاصرين، هو الجدارات (من المفرد الجدارة) العلميَّة، الصواب العلمي حقاً، للاستنتاجات الاستشراقيَّة. لم يستعرض السيد سعيد هذا السؤال بحكمة، ووفر النزر اليسير من الاهتمام للتراث الكتابي للدارسين الذين تشكّل مواقفهم المفترضة وحوافزهم وأهدافهم تيمة كتابه. فنقد التراث الاستشراقي منطقي، ويشكل جزءاً ضرورياً حقاً من المسار. من حسن الحظ، أنَّه مسار مستمر طوال الوقت، وليس نقداً للاستشراق، والذي قد يكون دون معنى، بل هو نقد للبحث ولنتائج الدارسين الأفراد أو مدارس الدارسين. كان نقد المستشرقين لأعمالهم هو الأكثر ذكاء وجِدّاً، وسيبقى كذلك.

Mominoun
MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm

info@mominoun.com
www.mominoun.com